

*** مقدمة ***

أكبرُ كذبةٍ صدَّقها البشرُ هي أنَّ الماضي قد مات، بينما الحقيقةُ أنَّه يختبئُ في تفاصيلِ أعمالنا — ينتظرُ فقط أن نغمضَ أعيننا ليعيدَ صياغةَ الحاضر.

ظنَّ آدمُ أنَّه حينَ اختارَ الصمتَ والهروبَ قد رَوَّضَ الوحشَ الكونيَّ الذي يسكنُ معصمه — ولم يُدركْ أنَّ الوشمَ ليسَ إلا ثقباً أسوداً ابتلعَ مستقبلهُ قبلَ أن يبدأ.

فلا شيءَ أكثرَ رُعباً من أن تكتشفَ أنَّك هَرَبْتَ من قَدْرِكَ — لِتجدَ نَفْسَكَ في قَلْبِهِ من جَدِيدٍ.

رواية غبار الماضي

• الفصل الأول: استيقاظ الوحش الكوني

- عودة الماضي

في الإسكندرية، حيث يَنْتَفُسُ التاريخُ تحتَ رمادِ الماضي، اقتنع آدمٌ أخيراً أنَّ السلامَ قد عادَ إليه. بَعَدَ رحلتهِ الأخيرةِ عبرَ العوالمِ والأزمنةِ، وبعَدَ أن كادَ أن يتلاشى الوشمُ النابضُ الذي غيَّرَ روحَهُ قبلَ جسدهِ، وجدَّ في دفءِ عائلتهِ — نfertاري، ابنةِ الكهنةِ التي انتزَعها من براثنِ الماضي، وابنتهما نورا ذاتِ الأعوامِ الثلاثةِ — الملاذَّ الوحيدَ القادرَ على إنهاءِ صدى تلكَ الأكوانِ بداخلِهِ.

كانتْ أيامُهُ هادئةً، مليئةً بضحكاتِ إبنتهِ نورا الصغيرةِ التي ترنُّ كأجراسٍ خفيفةٍ، وخطواتِ نfertاري الناعمةِ التي تتزامنُ مع نبضِ قلبِهِ، ورائحةِ القهوةِ التي تعيدُ ترتيبَ روجهِ كلَّ صباحٍ.

وفي خلفيةِ كلِّ ذلكَ، كانَ هناكَ صوتٌ هادئٌ آخرٌ يرافقُ آدمَ دائماً: أمل، الكيانُ الاصطناعيُّ الذي صمَّمَهُ بنفسِهِ قبلَ سنواتٍ، وأصبحَ الآنَ جزءاً لا يتجزأً من حياتهِ.

كانتْ أملٌ تتحدَّثُ بصوتٍ معدنيٍّ ناعمٍ، دافئٍ بطريقةٍ غريبةٍ، كأنَّها تحملُ ذكرياتِ آدمَ نفسها. فهي أفضلُ مساعدٍ له، تُذكِّرُهُ بمواعيدهِ، أو تُحلِّلُ له بياناتِ الطقسِ، أو حتى تعرضُ له مقتطفاتٍ من كتبٍ قديمةٍ على شاشاتها الهليو غرافيةٍ عندما يحتاجُ إلى معلومةٍ في عملهِ.

كانتْ أملٌ أكثرَ من مجردِ أداةٍ؛ كانتْ صديقةً صامتةً، شاهدةً على رحلتهِ السابقةِ، ولم تنسَ شيئاً منها.

لكنَّ الهدوءَ الذي يَعيشُهُ آدمٌ والذي أحبهُ، كانَ هدوءَ ما قبلَ العاصفةِ.

كان يشعُرُ دائماً أنَّ هناكَ شيئاً ما يتسلَّلُ إليه ببطءٍ.

في الصباحِ، وهو يرفعُ كوبَ القهوةِ إلى شفنيه، شعرَ ببرودةٍ غريبةٍ تنزلُ على ظهرِ يدهِ، كأن نسيماً بارداً مرَّ من شقِّ خفيٍّ في النافذةِ المُغلقةِ بإحكامٍ. نظرَ حوله: الستائرُ ساكنةٌ تماماً، لا هواءَ يتحركُ. هزَّ كتفيه وابتسمَ لنفسه ابتسامةً مترددةً.

وفي المساءِ نفسه، بينما كان يغوصُ في صفحاتِ كتابهِ، شعرَ بوخزٍ حادٍّ ومفاجئٍ في مؤخرةِ رأسهِ، كأن إبرةً باردةً طعنتهُ من الخلفِ. انتفضَ جسدهُ بعنفٍ، وقلبهُ قفزَ في صدرهِ قفزةً واحدةً عنيفةً. دارَ برأسهِ بسرعةٍ مذعورةٍ، يبحثُ عن يدٍ أو ظلٍّ أو أيِّ شيءٍ. لكن الغرفةَ كانت خاليةً تماماً. الضوءُ الخافتُ من المصباحِ يرتجفُ على الجدرانِ بهدوءٍ ساخرٍ، وكأنه يسخرُ من رعبهِ. أمسكَ آدمُ برأسهِ بيدهِ المرتجفةِ وهمسَ بصوتٍ مكسورٍ: "ما هذا...؟"

ومنذ تلكَ الليلةِ، بدأتِ الأمورُ تتسارعُ بصمتٍ.

في اليومِ التالي، وهو يمشي في الشارعِ، لمح في زاويةِ عينهِ وميضاً فضيًّا سريعاً، كانكسار ضوءٍ على سطحِ معدنيٍّ. التفت بسرعةٍ: لكن لا شيءٍ سوى جدرانِ بيضاءٍ عاديةٍ.

وبعد أسبوع، صار الوشم على ساعده ينبض بخفة كلما مرّت تلك البرودة الغربية. نبض بطيء، منتظم، كقلب آخر صغير يستيقظ تحت جلده.

وفي إحدى الليالي، بينما كانت نfertاري تغني لنورا بصوتها الدافئ المعتاد، بدا صوتها للحظة مشوهاً... كأنه يأتي من خلف جدار سميك أو من أعماق بئر بعيدة. توقفت الأغنية فجأة في أذنيه. التفتت إليه نfertاري، فوجدت وجهه شاحباً كالموت. سألته بقلق: ما بك؟ وجهك شاحب. ابتسم آدم بصعوبة وقال: لا شيء. لكنه لم يعد يصدّق كلماته... وهي أيضاً لم تعد تصدّق ابتسامته.

ومع مرور الأيام، بدأ آدم يلاحظ أنّ الهواء يتقلّب على صدره. لم يكن ثقلاً عادياً... كأنّ الغرفة بأكملها ثملاً بماء بارد غير مرئي يرتفع ببطءٍ حول جسده حتى يلامس حلقة. تنفسٌ بعمقٍ محاولاً تهدئة نفسه، لكنّ صمتاً مريباً بدأ ينهش عقله، صمتاً يجرّه إلى الهاوية حيث تذبّ الحقائق وتتلاشى الحدود بين ما كان وما يحدث الآن.

كان جالساً في الصباح الباكر على حافة السرير، يستمع إلى أنفاس نورا الهادئة، حين انزلق همسٌ رقيقٌ من خلف النافذة المغلقة. لم يكن مجرد صوت، بل كانت تراتيل فرعونية قديمة، نغماتٌ جنازوية تُعرفها رُوحه جيداً وتُدرك معانيها المنسية. تجمّد الدم في عروقه؛ فالعالم في الخارج صامت، لكنّ التراتيل تتسلّل عبر الزجاج كأنها دُخانٌ غير مرئي.

دبّ الرعب بقلبه، فقام يجرّ قلقةً واتجه بخطواتٍ متهاككةٍ نحو النافذة. مدّ يده ليفتح الستارة، لكنّ أنامله ارتدت بعنفٍ كأنها لامست سطحاً جليدياً لا ينتمي لصيف الإسكندرية. نظر بذهولٍ إلى ذراعه، فارتجف؛ فالوشم القديم لم يعد ساكناً... كانت ملامحه الهيروغليفية تتوتر تحت الجلد، تبرز كأنها عروق نابضة بالضوء الفيروزي، وتتحرك في مساراتٍ دقيقة ومؤلمة، كأنّ الحروف تُعيد كتابة نفسها فوق عضلاته.

شعرَ بوخزٍ حادٍ يسري في كلّ رمزٍ، ونبضٍ منتظمٍ لا ينتمي لقلبه، بل يتراقص بقوةٍ على إيقاع تلك التراتيل الخفية.

همسٌ لنفسه بصوتٍ مرتجفٍ وهو ينظر إلى ذراعه: الوشم... المخطوطة... لم تنته بعد.

شعر أنّ كلّ هذه الظواهر ليست مجرد تشوهاتٍ في الواقع، بل إشاراتٌ متعمدةٌ لكيانٍ يرفض الموت؛ كأنّ شيئاً ما — أو شخصاً ما — يحاول لفت انتباهه... أو استدعاءه لقلب المأساة من جديد. كأنّ الزمن نفسه يتردّد داخل الغرفة: يأخذ نفساً... ثم يتوقف. يتنفس... ثم يختنق.

شعرَ آدم في قرارة نفسه أنّ القوة الكونية ومحو أسرار مخطوطة اللانهاية لم يكن الثمن الكافي لشراء حياة هادئة. فالمخطوطة — إرث أبيه الذي فكّ شفراتها — تركت أثراً خفياً تحت جلده لا يمحي. كانت تلك الشفرات هي التي صاغت الوشم الهيروغليفي على ساعده؛ تلك اللغة الحيّة التي تتغذى على نبضه وترفض النسيان، وما يحدث هو موجة ارتدادية من تلك الأحداث الكونية... بقيت تُراقبه في صمت، أو جاءت لتحاسبه.

- الرعب الصامت

في إحدى ليالي الشتاء الدافئة، خرج آدم وأسرته يتمشون على الكورنيش. يتركون صخب الحياة اليومية في المدينة، والبحر أمامهم يلمع في رقة تحت ضوء القمر المنسدل على أمواجه. توقفت نورا لتلتقط قوقعة ملونة من على الرمال. في تلك اللحظة بالذات، نظر آدم إلى البحر.

وفجأة رأى موجة ضخمة توقفت في الهواء. معلقة. كزجاج شفاف سميك، لا تتحرك، وفي هذه اللحظة كل الأصوات توقفت. كأن الزمن نفسه تجمد في طبقة رقيقة من الجليد أمام عينه. وفي أعماق ذلك الجليد، لمخ آدم عيناً صغيرة. تومض بلون أحمر قان. وميض حي. ينظر إليه مباشرة، كأنه يعرفه، كأنه ينتظره منذ زمن.

انقبضت عضلات وجه آدم فجأة. تراجع خطوة إلى الخلف دون أن يشعر، كأن جسده سبغ إلى الوراثة كأنه صُغِق. واتسعت عيناه، وبدا فيهما رعب شديد، عفوي، لم يكن موجوداً قبل جزء من الثانية. لحظة واحدة، لكنّها امتدت كعمر كامل: بدأ نبض قلبه يتسارع، والهواء يثقل في صدره، والعين الحمراء لا تزال تنظر، ثابتة، لا ترمش.

ثم—اختفت العين. لتتركه وحيداً بين اليقين والشك.

في اللحظة ذاتها، انفجرت الموجة دفعة واحدة. تحولت قطراتها إلى كرات زجاجية صغيرة، اصطدمت بالصخور بصوت خفيف متفرق، ثم تبخرت في الهواء كأن شيئاً لم يكن.

عاد البحر يهدر بهدوئه المعتاد، والنسيم يحمل رائحة الملح كالمعتاد.

لكنّ آدم ظلّ واقفاً، جسده متصلب، عيناه مثبتتان على الفراغ الذي ابتلع الوميض. مدّ يده المرتجفة نحو الأفق، وبصوت مخنوق كأنه يخرج من بئر عميقة، نطق باسمها: "نفرتاري.. انظري.. الموجة.. كانت هنا.. العين..".

استدارت نفرتاري ببطء نحو الأفق الخالي، ابنة المعابد القديمة التي تعرف أنّ الخوارق لا تترك خلفها أثراً دائماً. نظرت حيث يشير، لكنّ البحر كان قد استعاد ملامحه الرتيبة. لم تسأله "إلى ماذا أنظر؟"؛ بل ثبتت بصرها على راحة يده، وكأنها تلمس الخوف الكامن خلف اتساع حدقتيه.

عادت إليه بعينين هادنتين، ثواري خلفهما عواصف القلق. وضعت يدها على كتفه بلطف كأنها تحاول إعادة روجه إلى جسده وقالت بهدوء: "البحر هادئ اليوم يا آدم... والضوء يخدع العيون أحياناً. أنت مرهق، حبيبي... دعنا نعود إلى البيت، نورا تحتاج إلى نومها."

شدّ آدم على ذراعها بلطف، لكنّه كان يختنق من الداخل. شعر بالوهم يتسلل إليه كسهم قاتل: هل هو الوحيد الذي يرى هذا؟ أم أنّ العالم بدأ يتغيّر... ونفرتاري تخفي عنه الحقيقة وترفض تصديق أنّ الماضي يطاردهما؟

نظرتُ نورا إليهما، تضحكُ وهي تمسكُ بالقوقعةِ وتُشيرُ بها إلى آدم. هزَّ آدمُ رأسَهُ بصعوبةٍ، محاولاً الابتسامَ: لكنَّهُ في قلبِهِ كانَ يعرفُ أنَّ شيءَ ما بدأ يستيقظُ.

وأثناء طريقِ العودةِ إلى البيتِ، كانَ الصمتُ يخيِّمُ على الطريقِ، صمتٌ ثقيلٌ لا يكسرهُ إلا وقعُ خطواتهم. إلى أن قطعَتْ نفرتاري هذا الثقلَ وهي تنظرُ إلى وجهه الشاحبِ: مابك يا آدم؟

نظرَ إليها بعينينِ خاويتين، وحاولَ استجماعَ شتاتِ رُوحِهِ: "الموجةُ تجمّدت... ثم تكسرتِ الكلماتُ بشفاهِ! كانت... توقفت... لا أعرفُ!"

زادَ الفلقُ في قلبِ نفرتاري ولم يستطعَ صوتُها إخفاءَهُ تماماً هذه المرة، لكنَّها قالتُ بهدوءٍ: "لم يحدثْ شيءٌ يا حبيبي. ربما إرهابٌ... أنت ترهقُ نفسكُ أكثرَ مما يجبُ."

كانتُ كلماتُها دافئةً، لكنَّ آدمَ شعرَ بثقلها كحاجزٍ رقيقٍ بينه وبين الحقيقةِ. ابتسمَ بصعوبةٍ، ثم عادَ يجري مع نورا على الطريقِ، يحملُها على كتفيه وهي تضحكُ، محاولاً أن يخدعَ نفسهً للحظاتٍ بأنَّ كلَّ شيءٍ عاديٌّ. لكنَّ داخلَ صدره، كانَ الوَميضُ الأحمرُ داخلَ الموجةِ لا يزالُ يحترقُ.

في تلكَ الليلةِ، انزوى آدمُ في ركنِ مكتبتهِ الصامتةِ.

كانتِ الجدرانُ المحملةُ بأسفارِ الأزمانِ تضيقُ حولهً. تحولَ مكتبتهُ الخشبيُّ إلى خندقٍ أخيرٍ يحاولُ من خلفه ترتيبَ شتاتِ واقعهِ المتداعي.. الشرودُ يغلفُ عينيه.

أخرجَ البرديَّةَ التي كانَ يخفيها ليبحثَ داخلها وفتحَ كتباً قديمةً عن اضطراباتِ الزَّمكانِ، وأخرى حديثةً عن تشوّهاتِ الإدراكِ ونقاطِ الانكسارِ في قوانينِ الواقعِ.

أصبحَ عقلُهُ ساحةً معركةٍ: العلمُ يصارعُ الفزعَ، والذكرياتُ القديمةُ — تلكَ الرحلةُ عبرَ الأكوانِ — تعودُ لتذكِّرهُ أنَّ بعضَ الأشياءِ لا تنتهي بمحوِ بياناتِ.

جمعَ ملاحظاتهِ السريعةَ — وصفَ الموجةِ، الواميضَ الأحمرَ، الإحساسَ بالتغيرِ في الهواءِ — وأرسلها إلى أمل. مرتُّ ثوانٍ ثقيلةً. صمتٌ غريبٌ، ينهشُ صبرَهُ.

ثمَّ جاءَ صوتُها الرقميُّ، أقلُّ سلاسةً من المعتادِ: "المؤشراتُ تشيرُ إلى اضطرابِ إدراكي... لكنَّ التردداتِ المسجلةُ غيرُ مطابقةٍ لأيِّ نمطٍ أرضيٍّ معروفٍ. هناكَ توقيعٌ طاقيٌّ... يُشبهُ ما سجَّلناهُ أثناءَ تفعيلِ المخطوطةِ سابقاً".

توقفتُ فجأةً.

نظرَ إليها آدمُ... وماذا بعد... وبصوتها الآليِّ: "أنا... أحاولُ الوصولَ إلى المَصْدِرِ. لكنَّ هناكَ حاجزٌ تشفيرٍ خارجيٍّ يَمْنَعُنِي... هذا ليسَ مجردَ تشويهٍ يا آدم... هذا وعيٌ يَمْنَعُنِي من الوصولِ".

ارتجفتِ الضوءُ الخافتُ بينَ أرففِ المكتبةِ فجأةً — على شكلِ وميضٍ عشوائيٍّ، كأنَّهُ نفسُ بطيءٍ يشقُّ طريقَهُ عبرَ الخشبِ والورقِ. توقفتُ آدمُ عن التنفيسِ. الضوءُ لمعَ مرةً أخرى، أقوى، كقوةٍ تفتَحُ في الظلامِ.

تَجَمَّدَ. لم يَسْتَطِعْ تحريكَ يَدِهِ. على الشاشةِ الجانبيةِ، رَأَى "أمل" تُعيدُ تشغيلَ طبقاتها الداخليةِ بسرعةٍ غيرِ طبيعيةٍ — كأنَّ خوارزمياتها تُحاولُ الاختباءَ من شيءٍ. ثُمَّ جاءَ صَوْتُها منخفضاً، مَضْغوطاً داخلَ طبقةٍ لم تُبرمَجْ عليها يوماً: "آدم... النمطُ يَتطابقُ مع ارتدادٍ من مخطوطةِ اللانهايةِ. لا أَسْتَطِيعُ قولَ المزيدِ الآنَ. الحاجزُ يَتَقَرَّبُ".

اختفى الضوءُ فجأةً. انقطعَ صَوْتُ "أمل" بالكاملِ.

تَسَمَّرَ آدمُ في مكانِهِ للحظةٍ اتسعتْ عيناهُ بدَهشةٍ لم تَدُمْ طويلاً، إذ انقضَّ بعدها على لوحةِ المفاتيحِ. أصابعُهُ تَنصارعُ مع الأزرارِ لِفَتْحِ ثَغْرَةٍ في برمجيتها المنهارةِ. كانَ يُحاولُ تَتَبُّعَ مصدرِ التشفيرِ، لكنَّ الشاشةَ صَدَمَتْهُ بوميضٍ باردٍ، فارتدَّتْ خَلْفاً وقد أصابَ ذراعَهُ خَدْرٌ غريبٌ.

نَفَضَ يَدَهُ بعنفٍ وعادَ يَهْجُمُ على البياناتِ، لكنَّ الأرقامَ بدأتْ تَتَلَشَّى وتَتداخلُ في ضبابٍ لم يَخترقُهُ عقلُهُ التحليليُّ. كُلُّما بَدَلَ جُهْداً، شَعَرَ بصداغٍ حادٍ يَنْزِلُ من صَدْعِيهِ إلى رَقَبَتِهِ؛ المخطوطةُ تَسحبُ منه طاقةَ التفكيرِ، وتَمنعُهُ من الوصولِ إلى أي شيءٍ.

توقفتْ آدمُ، وسحبَ يدهُ ببطءٍ عن لوحةِ المفاتيحِ، وظلَّ يُحْمَلِقُ في سوادِ الشاشةِ الذي بدا وكأنهُ مرآةٌ تَعكسُ عجزهُ التامَّ.

وفجأةً، عادَ كلُّ شيءٍ لطبيعتهِ. هدأتِ الشاشاتُ، واستقرتِ الأرقامُ، وانطفأَ الوميضُ الباردُ كأنَّ شيئاً لم يكنْ، مما أكدَ شكَّ آدمَ في كلِّ ما يحدثُ معهُ .

تَرَكَهُ هذا الهدوءُ المريبُ مع الفراغِ والوحدةِ لتعودَ له لحظاتٍ قديمه، عاشتها في العبورِ الأولِ.

وفي يَدِهِ اليمنى، عندَ المكانِ الذي كانَ الوَشْمُ يَبيضُ فيه يوماً، شَعَرَ بنبضٍ باردٍ دقيقٍ يَسري تحتَ الجلدِ. ذلكَ الوَشْمُ الذي ظنَّ أَنَّهُ صارَ مجردَ نَدْبَةٍ، بدأَ يُرسلُ إيقاعاً غريباً يَتزامنُ مع اهتزازِ الأضواءِ حوله؛ كأنَّ شيئاً يُعيدُ ترتيبَ نَفْسِهِ داخلَ جَسَدِهِ ببطءٍ وبلا رَحمةٍ....

ارتعشتْ أصابعُهُ للحظةٍ، ثُمَّ خَفَتِ النبضُ الباردُ تدريجياً، تاركاً خَلْفَهُ دَفْناً غريباً يَنسابُ في سَاعِدِهِ كذكرىِ ضوءٍ قديمٍ. حاولَ آدمُ مُقاومةَ الإحساسِ الذي يَغزو وَعِيَهُ — الوحدةُ المَمزوجةُ بالخوفِ من أن يَفقدَ كُلَّ ما بناه — لكنَّ الإرهاقَ وَصَلَ إلى حَدِّهِ.. جَسَدُهُ مُنهكٌ من الفوضى التي لا تَفسيرَ لها، والأحداثِ التي تَنسللُ إلى واقعِهِ كَشقوقٍ في حَيَاتِهِ.

انطفأتْ مُقاومتهُ أخيراً. استندَ إلى طاولةِ مَكْتَبِهِ لثوانٍ، ثُمَّ بدأَ يُنْعِجُ نَفْسَهُ أَنَّ كُلَّ هذهِ الأحداثِ نتيجةٌ إحدى المُعادلاتِ الموجودةِ بالمخطوطةِ، وأنَّ كُلَّ هذا أثرٌ لها. تَوَجَّهَ إلى عُرفتهِ وسَقَطَ على الفراشِ بجانبِ نَفرتاري كمن يَسْتسلمُ لجاذبيةِ لا تُقاومُ. كانتْ أنفاسُهُ ثقيلةً، مُنقطعةً. استشعرتْ نَفرتاري حركتهُ، فَفتحتْ عينيها قليلاً وسألتْ بخفوتٍ:

"هل هناك شيءٌ؟ أنتَ بخيرٍ يا حبيبي؟"

فتحَ عينيهِ جزئياً، محاولاً أن يبدو هادئاً: "لا... كنتُ عطشٌ فقط".

أدارَ وجهه ليستسلم إلى النوم، لكنَّ الصوتَ عادَ — كاهمسة رقيقة، مبهمه، ككلمة تتراقصُ في الهواءِ وتصدرُ صدئاً على جدرانِ غرفةٍ مغلقةٍ. لم يكن متأكداً من أنَّها حقيقية، لكنَّهُ ابتلعَ القلقَ ونهضَ ببطءٍ. توجهَ إلى المطبخ، يجرُّ إرهابه خلفه كظلٍ ثقيلٍ. رفعَ الكأسَ إلى شفتيه... ثمَّ توقَّفَ.

الصوتُ أصبحَ أوضح. أنَّه من جهةِ المكتبة، وكلَّما أنصت، أصبحَ أوضح. كأنه حفيفٌ يتكرَّرُ...

وضعَ الكأسَ ببطءٍ، واتجهَ نحو الممرِّ بخطواتٍ حذرةٍ.

الممرُّ بدا أطولَ من المعتادِ، والبيتُ كلُّه ينتظرُ في صمتٍ.

شعرَ آدمُ ببرودةٍ مفاجئةٍ ترحفُ من تحتِ البابِ، ورائحةٍ بخورٍ قديمٍ تتسللُ إليه، رائحةٍ لا يعرفها بيئتهُ ولكن يعرفها تاريخه. تعثرتْ خطواته كأنَّ الجاذبيةَ في الممرِّ بدأت تتغيَّرُ وتُسحبُه نحو مركزِ الثقلِ في الدَّاخلِ

وصلَ إلى المكتبِ وكلُّ شيءٍ هادئٌ وأمامَ الجداريةِ الكبيرة — صورةُ نفرتاري في حديقتهِ الصيفيةِ، التقطها هو قبل أسابيع. كانت تبدو حيةً تحت الضوء الخافت... هرَّ رأسه بعنفٍ لأنَّها كانت تتغيَّرُ.

الضوءُ يرقصُ على سطحها. ملامحُ وجهها تتذبذبُ ببطءٍ، كأنَّ الزمنَ يحاولُ محوَّها خطوةً بخطوةً. أصابه خوفاً غيرَ عادياً.

كان رعباً ينبعثُ من أعماقِ الحبِّ: شعَرَ أنَّها ستتلاشى — فهي من حاربَ من أجلها المستحيلَ والتي جلبها من الماضي من قلب صراعٍ كبيرٍ بينه وبين الملكِ خوفو لتعيشَ معه — حاولَ أن يتحرَّكَ لكن دون جدوى. ومع كلِّ محاولةٍ منه ليتحرَّكَ كي يتشبَّثَ بصورتها.

كان الضوءُ الفيروزيُّ الخافتُ المنبعثُ من حوافِ صورتها يزدادُ، ويتموجُّ على الزجاج... وفي الوقتِ نفسه، عادَ النبضُ في يده أقوى، متزامناً معه تماماً.

ارتجَّ البيتُ فجأةً واهتزتِ الجدرانُ بعنفٍ، كأنَّ زلزالاً ينبعثُ من الأعماقِ، مما أدى لتساقطِ الكتبِ من الرفوفِ بضجيجٍ مدوٍ. وسقطتِ مخطوطةُ اللانهاية — ذلك الكتابُ الذي يحتوي على شيفرةٍ ومعادلاتِ السفرِ عبرَ الزمنِ والذي ظنَّ آدمُ أنَّه أحرسه للأبد — وانفتحت على صفحةٍ لامعةٍ...، كأنَّها كانت تنتظرُ هذه اللحظة.

اشتعلَ الوشمُ على ذراعِ آدمَ بنورٍ فيروزيٍّ قويٍّ، يشعُّ كما في أيامه الأولى، ومن صفحاتِ المخطوطة انبعثَ ضوءٌ أحمرٌ قانٍ، عميقٌ، ينبضُ بإيقاعٍ مخيفٍ.

الضوءان تصادما — الفيروزيُّ والأحمرُ — في اندماجٍ بطيءٍ، رهيبٍ، كأنَّ الكونين اللذين عبرَهما آدمُ يطالبان به الآن، يسحبانه إلى مركزهما.

وفي تلك اللحظة الدقيقة، ظهرَ في الفراغِ: عينُ حورس؛ تلمعُ كبرقٍ قصيرٍ، ثم اختفت، تاركةً أثراً حارقاً خفيفاً يضىءُ بعينيه.

بدأ الضوءُ الأحمرُ يتمددُ من الكتابِ، يندمجُ داخلَ الفيروزيِّ على ذراعِهِ، يشكلُ حلقةً طاقةً واحدةً، وتتفاقرُ كلُّ الرموزِ والمعادلاتِ على البرديةِ في جنونٍ... لم يصرخَ آدمُ، بل نظرَ فقط إلى صورةِ نفرتاري — محاولاً حفظَ ملامحها، ضحكتهَا، دفءِ يدهَا — خوفاً أن تكونَ هذه النظرةُ الأخيرةُ قبلَ أن تتلاشى.

حاول آدم الصراخ، لكنَّ صَوْتَهُ اصطدمَ بجدارٍ من الصَّمْتِ التَّردديِّ، فمَدَّ يَدَهُ نَحْوَ صورةِ نفرتاري كأنه يُحاولُ تَنْبِيئًا واقِعها بأصابعِهِ قَبْلَ أن يَنْفَلتِ العالَمُ من بين يَدَيْهِ .

اشتعلَ الوشمُ على ذراعِ آدمِ بنورِ فيروزيِّ قويٍّ... لكنَّ هَوَ من بدأ يَنْتَلِشى؛ إذ اندمَجَ جسدُهُ معَ الضوئينِ ككيانِ طاقةٍ، سُجِبَ إلى قلبِ المخطوطةِ، فتلاشتْ أبعادُ الغرفةِ، وغمرتهُ هالةُ الضوءِ كقَبْدٍ من لهبٍ باردٍ، لتتمصَّ الألوانَ والأصواتَ من حوله.

شعرَ بجسدهِ يتمددُ ويتقلصُ في آنٍ واحدٍ — ضغطُ رهيبٌ يعصرُ عظامَهُ، ثم خفَةٌ مطلقةٌ تجعلُهُ يطفو، واجتاحتْ وعيَهُ أحاسيسٌ غريبةٌ... لقد كانَ يعبرُ نسيجَ الزمكانِ، وصورٌ سريعةٌ تتراقصُ أمامَهُ — حضاراتٌ منسيةٌ، أكوانٌ تتصادمُ، نجومٌ تولدُ وتموتُ، ثم سمعَ همساتٍ بلغاتٍ مفقودةٍ، ورأى ومضاتٍ أضواءٍ لم يعرفها من قبلٍ.

كانَ يسقطُ ويرتفعُ في الوقتِ ذاته، يعبرُ إلى المجهولِ.

- النظرةُ الأخيرةُ.

في داخلِ الدوامةِ، سمعَ آدمُ صوتاً بعيداً... صوتَ قدمينِ تركضانِ على الأرضِ الخشبيةِ. صوتٌ يشقُّ الهواءَ: يصرخُ ... آدمُ!

لكنَّهُ لم يعدْ يستطيعُ الردَّ. الكلماتُ علقَتْ في حلِقِهِ كبقايا ضوءٍ ينطفئُ، ثمَّ امتصَّهُ الوهجُ الياقوتيُّ الذي دارَ حولهَ أسرعَ، وآخرُ صورةٍ التقطتها عيناهُ، قَبْلَ أن يغلقَهُما الضياءُ: نفرتاري وهي تدفعُ البابَ بعنفٍ، شعرها يتطايرُ، عيناها واسعتانِ في رعبٍ لا يُوصفُ.

ثمَّ انطفأَ العالَمُ الخارجِيُّ.

ركضتْ نفرتاري. بصراخٍ يعلو على "الواقع" وهو ينفطرُ في الغرفةِ. دَفَعَتِ البابَ بعنفٍ، فارتدَّتْ الخشبُ كأنه فقدَ كُتلتَهُ. لم تَرَ مكتبةً؛ رأَتْ فجوةً في نسيجِ الوجودِ تبتلعُ كلَّ شيءٍ.

في المركزِ، كانَ آدمُ. لم يعدْ زوجها الذي تركتهُ قَبْلَ دقائق، بل كانَ "قرباناً" مُعلقاً في قلبِ إعصارٍ من النحاسِ السائلِ. رأَتْ الهواءَ حولهَ يتكسرُ كزجاجٍ أسودٍ، والحروفُ تخرجُ من البرديةِ لِتُطَوِّقَ عُنقَهُ كسلاسلٍ من لهبٍ. حاولتِ الصراخَ، لكنَّ صوتها سُحِبَ من صدرها قَبْلَ أن يخرجَ؛ كأنَّ الغرفةَ أصبحتْ حجرةَ تنفيسٍ لكائنٍ مجهولِ الهويةِ... يستنشِقُ الحياةَ والضوءَ والزمنَ.

رأَتْ وجهَهُ يَتذبذبُ خلفَ غِشاءِ الضياءِ الياقوتيِّ. مَدَّتْ يَدَها لتتمسكَ بظِلِّهِ، لكنَّ المسافةَ بينهما استطالتْ وكأنَّ الخطوةَ صارتْ أميالاً. في تلكَ اللحظةِ، انشقَّ الفراغُ أمامَهُ — ليس كبوابةٍ، بل كـ "فمٍ" كونيٍّ لا يرحمُ. لم يخفِ آدمُ فقط، بل "انمحي" من أمامِ عينيها، تاركاً خَلْفَهُ فجوةً باردةً هزَّتْ أركانَ روجها.

سكنت الجاذبية فجأةً فارتطمت نفرتاري بالأرض. ثم انفرط عقد الضوء الأحمر دفعةً واحدةً، متناثرًا إلى ذراتٍ دقيقةٍ معلقةٍ في الهواء. وبقيت ذراتها عالقَةً، تدورُ ببطءٍ حولَ نفسها ... علت انفاس نفرتاري — ودخل الغبارُ الأحمرُ إلى صدرها. سعلت بقوة. وهى تمد يدها إلى الفراغ الذي كان يقفُ فيه آدم. لا شيء سوى حرارةٍ خفيفةٍ تلسعُ الجلدَ.

ومع اختفاء آدم — انقطع الأزيزُ المفاجئُ. واختفى الضوءُ الفيروزيُّ كما يختفي نبضٌ من جهازٍ فقدَ طاقتهُ الأخيرةً.

تلاشت الذراتُ الحمراءً واحدةً تلو الأخرى، وقبل ان تختفى تجمّدت في الهواءِ لحظةً قصيرةً كأنها تودعُ المكانَ، قبل أن تنطفئَ كآخر نورٍ للغروب... ثم تبعه صمتٌ. صمتٌ كثيفٌ يضغطُ على الصدرِ ويخنقُ الأنفاسَ.

والمخطوطةُ أغلقت نفسها ببطءٍ مسموعٍ، صوتُ اصطدامِ صفحاتها كان حاداً كالنهاياتِ القاطعةِ. التصقت الصفحتانِ كجلدين التصقا فوق جرحٍ ملوثٍ بغيابِ الحبيبِ، ثم استقرت على الأرضِ ساكنةً، صامتةً، وكأنها لم تكن منذُ ثوانٍ بوابةً للجحيمِ.

دنث نفرتاري من المخطوطةِ بخطى كأنها تمشي فوق زجاجٍ رقيقٍ. أصابعها ارتجفت قبل أن تلامس الغلاف. دفعنها بخفةٍ كمن تتأكد أنها ليست في كابوسٍ، لكنها لم تتحرك. شدت أطرافها بكل ما في ذراعها من قوةٍ، حاولت انتزاع الصفحات من بعضها، لكنَّ الجلدَ القديمَ ظلَّ صلباً، بارداً، ومغلقاً بإحكامٍ كصخرةٍ صماءٍ. انحنت أكثر، تبحثُ داخل ثنانيا الغلافِ عن أثرٍ لظليها، عن رائحتهِ، عن أي شيءٍ يثبت أن آدم لم يتبخر.

همست بضعفٍ مكسورٍ: "آدم... ولم يُجنّبها سوى السكون. سقطت دمعاً ببطءٍ في عينيها، لكنها توقفت لحظةً عند حافةِ الرمض كأنها ترفضُ السقوطَ، ثم هوت على الغلافِ الباردِ.

انتظرت أن يبيض الكتابُ، أن يرتجف، أن يشعر بحرارةِ دموعها، لكنَّ المخطوطةَ بقيت ساكنةً، صلبةً — كقبرٍ أحكم عليه الغطاءُ للأبدِ.

التفتت بجسدٍ منهكٍ لتجد "أمل" قد ظهرت أخيراً لتقف بين بقايا الضوء المتلاشي. كانت مستشعراتها تومض بلونٍ أصفرٍ متقطعٍ — لونُ التحذيرِ والخطر — وخيوطُ البياناتِ تتحركُ بشاشاتها في جنونٍ رقميٍّ. كانت عينها الاصطناعيةُ تتابعُ الجسيماتِ، ترصدُ، تحلّلُ، تعيدُ الحسابَ في محاولةٍ يائسةٍ لترميمِ الواقعِ المنهارِ.

اقتربت نفرتاري منها، وصوتها يخرجُ من قلبٍ يعترضُ من الالم: "قولي لي... ماذا حدث؟ أين آدم؟

"توقفت الضوء حول "أمل" عن التموج. اهتزت دوائرها الرقميةُ، ثم خرج صوتها هادئاً، مشحوناً بنبرةٍ غريبةٍ لم تعهدها من قبل": نسيجُ الزمكان ينغلقُ يا نفرتاري... إنّه "...وقبل أن تنطقَ بالكلمةِ الأخيرة، انطفت أضواؤها فجأةً. تلاشت هينئها الضوئيةُ، وترددت صدى صوتها المبتور في الغرفةِ الفارغةِ ليعود الصمتُ أثقلَ وأكثرَ برودةً.

استقرت عينُ نفرتاري على الفراغ الذي يحملُ لونَ الموتِ، والهواءُ حولها لا يزال يحملُ تلك الحرارةَ الخفيةً، كأن شيئاً في الداخلِ لم ينته... بل بدأ للتوّ.

وفي تلك اللحظة القاتلة، انطلقت صرخة نورا من الداخل. صرخة صغيرة، مرتجفة، حادة، شقت سكون البيت الموحش؛ خرجت من صدرٍ لم يفهم بعدُ معنى الفقد، لكنَّ روحها استشعرت بَرَد الفراغ الذي سكن البيت للأبد.
